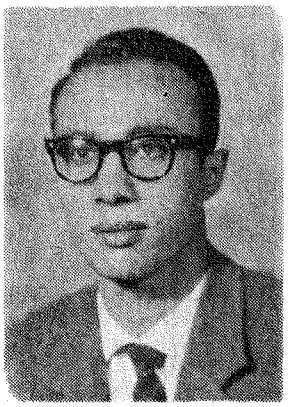

التيار الثوري في الشعر العربي الحديث

بقلم شوقي خميس

في الوقت الذي تتعالى فيه اصوات كثير من شعرائنا معلنة عبث الحياة ولامعقوليتها ، نادبة براءة الامس المفقودة ، تائهة في دروب اللاوعي الخفية ، منذرة بكارثة شاملة ، وفي الوقت الذي يتحول فيه عدد من شعرائنا الواقعيين من الرؤية الاجتماعية للواقع الى الرؤية الميتافيزيقية ، تتزايد مسئولية النقاد نحو تمييز الصوت الثوري في شعرنا ، حتى لا يتعرض للتردد والضعف تحت ضغط هذه الاصوات الغريبة . ولا تتعلق هذه المسؤولية بجانب الوظيفة الاجتماعية للفن فحسب ، وانما تتعلق اولا وقبل كل شيء بعناصر ازدهار الشعر في واقعنا العربي ، وتضاعف قدرته على التعبير عن مشاكل الانسان العربي على المستويين الوجودي والاجتماعي .

ولا نظن انه من الافضل ان نبدأ في هذا الصدد بوضع تعريف للثورية في الفن حيث لا تعتبر القواعد العامة الا في تحديد ما هو عام ، ونحن نريد النفاذ الى واقع المشكلة الخاص ، فاذا قلنا بان الفن الثوري هو الذي يزيد من ادراكنا بالواقع المحيط بنا مما يجعل منه عنصرا من عناصر التغيير فان السياسة والعلم .. الخ.. تهدف ايضا الى تحقيق هذا الغرض نفسه وهو انماء معرفتنا بالواقع وقدرتنا على تغييره الى الافضل ، وبذلك لا نكون قد اقتربنا كثيرا بهذا التعريف من الصفات النوعية للفن التي تميزه عن غيره من الظواهر الاجتماعية الاخرى .

نحن لا نريد تحديدا ثوريا مطلقا في الفن ، وانما نريد تحديد الثوري في الفن منسوبا الى واقع انساني محدد . ومن البديهي ان أي اتجاه ثوري يواجه صعوبات تختلف باختلاف الواقع الذي ينبع منه ويعبر عنه . ولا شك ان واقعنا الحديث قد وصل الى درجة من التعقد لم يكن لها مثيل تزيد من صعوبة عرضه عرضا ملائما .

ولكننا نود ان نؤكد ان واقعنا العربي له سيماته الخاصة . لقد كانت آلام المخاض والولادة الجديدة هي التي تنتابه في الوقت الذي انتاب الرعب وفقدان الامل اوروبا الرأسمالية ، حتى لتنعكس حشرجة حضارة محتضرة في صوت كثير من شعرائها المعاصرين . وكان الحنين في بلادنا الى ماض عاطفي فروسي يؤكد حنيننا الى المستقبل ، بينما الحنين ، الى الماضي المتردد في قصائد الشعراء الاوروبيين كان هروبا من تفاهة الحاضر وتفسخ قيمه وبلادته . وبينما كانت الحركة خلال صعوبات الواقع هي التي تتمثل فيها مشاكل الوجود العربي من نواحيها المأساوية والبطولية ، كانت محاولة تجميد الواقع «في انتظار الجودو» هي اخر حل يائس امام تصدع الوجود البورجوازي في أوروبا .

اذن فالتجربة العربية لها صفاتها الخاصة التي تميزها عن تجارب الامم الاخرى ويجب الا تخلو نقاط انطلاق التجارب الشعرية العربية المعاصرة من تاثير هذه الصفات ، والا كان معنى ذلك اصطناع التجربة وتلفيقها واستيراد مشاكل غريبة للتعبير بها عن محنة الانسان العربي او بطولاته ... الخ.

ولكننا في الوقت نفسه لا نريد بل ولا يمكننا ان ننعزل عن مشاكل العصر الذي نعيش فيه بعد ان ترابطت المصائر الى ابعد حد بين الناس الذين يعيشون على الكرة الارضية . نحن نعيش في عصر الطاقة الذرية والصراع الحاد بين الانظمة السياسية المختلفة وصعود الاشتراكية والتفوق الصناعي والعلمي وسيطرة التكنيك والتنظيمات واجهزة الدعاية على حياة الفرد بشكل متزايد تزايدا رهيبا ، نحن نعيش في عصر المفارقة الحادة بين انظمة شديدة التخلف تصارع مع انظمة اخرى متقدمة ، ونحن نعيش في عصر المفارقة الحادة بين الحياة في الريف والحياة في المدن الكبيرة ، نحن نعيش في العصر الذي ادت به كل العوامل السالفة وتطور وسائل الاتصال الى وحدة عالمية من المستحيل ان نكتفي بظهورها كمجرد زخرفة في اطار التجربة الشعرية ، وانما يلزم ان تظهر كعنصر مؤثر لا غناء عنه . ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ هذه هي مشكلة شعرائنا المعاصرين .

منذ حوالي عشرين عاما اخذت حركة جديدة تتميز في شعرنا الحديث مرتبطة باسماء عبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور ونزار قباني والشرقاوي وبلند الحيدري وخليل حاوي وادونيس . فقد اشتركوا جميعا في خلق وسائل جديدة تعبيرية في الشعر واشتركوا ايضا في وضع مفهوم جمالي عصري جديد والصراع من اجل احلاله محل المفاهيم الجمالية السابقة في الشعر واشتركوا ايضا في نزعتهم الواقعية وفي توسيع مفهوم التراث القومي باتجاههم نحو التراث الشعبي والفولكلوري ، واشتركوا كذلك في تأثرهم على مستوى التفاعل لا التقليد بالتراث الانساني العالمي والمعاصر ، ولكنهم كانوا في ذلك على درجات متباينة تباينا كبيرا ، وكانت بداية كل منهم تحمل بذور مستقبله ، وسرعان ما تفرقت بهم الطرق حتى انهم يمثلون الان اتجاهات ليست مختلفة فيما بينها فحسب بل ومتعادية احيانا ، ولكن خلال العشرين سنة الماضية ومع هؤلاء الشعراء وفي اعقابهم دخل شعراء اخرون الى الميدان ليعطوا البداية ثقلها وليؤكدوا الطريق ويزيدوه خصبا وليعطونا الامل في مستقبل أفضل للشعر .

واذا نظرنا الان الى عالمنا الشعري في صورته العامة التي تلخص عشرين سنة من التجربة الحادة الخصبة يمكننا التمييز بين جانبين متصارعين ومتعاديين على احدهما يقف شعراؤنا الملتزمون وعلى الاخر يقف الشعراء المعادون للالتزام .

فسواء استمد الشاعر مادة قصائده من التاريخ او الاسطورة او استمدها من واقع الحياة فانه يواجه بعملية اختيار تتحدد خلالها وجهة نظره فيما هو جوهري وما هو ثانوي في التجربة التاريخية او الاسطورية او الواقعية وتتحدد بهذا الاختيار وجهة نظره في الحياة والانسان بصرف النظر عن اتجاهه الاجتماعي والسياسي . وبتقييمنا لنظرة الشاعر وموقفه من الحياة والانسان نحدد مضمون التزامه وطبيعته ، واذا كان من البديهي ان الشعراء الذين يعبرون باشعارهم عن معتقد معاد للحياة باسم العبث او الفشل او اللامعقول او الكارثة. انما يقفون موقفا معاديا للالتزام لان وجهة نظرهم لا تتضمن أي عناصر ايجابية مخصبة للحياة ، فانه من البديهي ايضا ان الشعراء الذين يقفون بجانب الانسان في قضايا تحرره القومي والسياسي وفي محاولته لتخطي اغترابه امام عالم تفوق فيه التطور المادي على وعي الانسان فهؤلاء هم الملتزمون . وهم الذين يمثلون التيار الثوري في شعرنا العربي الحديث ، هذا مع ملاحظة ان التزام الشعراء انما يعبر عن

درجات مختلفة من الرؤية ويمثل مستويات تتعدد بتعدد مضمون الالتزام ، وكذلك فان الشعراء المعادين للالتزام انما يصدرون في اتجاهاتهم عن زوايا مختلفة في النظر الى الحياة والحكم عليها . وقبل ان ندخل في تفصيل هذه الاتجاهات وتلك حتى يتضح التيار الثوري بسيماته الخاصة في شعرنا العربي الحديث ومن خلال ابراز التيارات الاخرى المتصارعة معه ، ينبغي ان نسجل عدة نقاط عامة تنبع من الظروف الموضوعية بحركة الشعر في بلادنا .

أولا : الرؤية الحديثة ووسائل الخلاص

لقد حدثت تغيرات بالغة الضخامة في واقعنا العربي في العشرين سنة الاخيرة على المستويين الاجتماعي والسياسي ، مما كان لا بد وان ينعكس على نحو ما على الحركة الفكرية والفنية في بلادنا ، كذلك فان ظروف القرن العشرين ادت الى تغيرات عميقة ومتلاحقة في علاقة الانسان بالانسان والمجتمع والطبيعة نتيجة للتقدم الذي أحرزه العصر من ناحية ولما أتى به وراءه من قوى تدميرية قادرة على افنائه من ناحية أخرى .

موجز القول ان الحياة بكافة اشكالها تتغير وتتسم بسرعة لم يسبق لها مثيل في حركة التغير ، وكان لا بد وان ينعكس هذا الواقع على الفن متمثلا في مشاكل جديدة تحيط بالوجود الانساني ورؤية جديدة تعبر عن هذا الوجود . ونظرا لترابط المشاكل الانسانية في عصرنا من ناحية ولتأثيرها المتبادل من ناحية اخرى لا يصح ان نستغرب تشابه الحلول التي تبناها شعراء شديدو الاختلاف والتباين في موقفهم الاجتماعي . فبينما تسحق الحرية الفردية امام ضراوة التنظيمات واجهزة الدعاية الرهيبة في المجتمع البورجوازي الذي اقام بناءه الفكري والعقائدي على اساس من هذه الحرية ، وبينما تتجه المجتمعات الاشتراكية الان نحو التوسع المتزايد في مضمون الحرية الفردية وهي المجتمعات التي أقامت بناءها الفكري والعقائدي على اساس الحياة الجماعية والفعل الجماعي ، وبينما يخرج علينا الواقع بين حين واخر ـ خاصة في السنوات الاخيرة ـ بتطبيقات جديدة اجتماعية لم تكن من الممكن التنبؤ بها من قبل ، يحاول الفن هنا وهناك ان يحمل رسالة التوحيد بين البشر ويأمل ان يقوم بوظيفة الدين ويحاول الفن كذلك ان يعيد تقييم حضارتنا بمقارنتها بالحضارات الكبرى السابقة ويحاول الفن ان يستثير ينابيع البهجة والحيوية الاصيلة في الانسان والمستهلكة في ممارسة لتفاهة الحياة العادية المعاصرة . ويحاول الفن ان يرتبط بالاسطورة وان يلجأ الى الحلم لتحقيق التوازن في الوجدان الحديث الذي يهدده الانفصام . ويحاول الفن ان يكتشف الطوابق المؤدية لتحقيق الاتصال بين الانسان والطبيعة في صورتها الجديدة الغريبة ، ويحاول الفن ان يستمد من التراث الشعبي والبدائي اصواتا تؤكد ضرورته واصالته . وينظر الى هذه الوسائل كالدين والتاريخ والاسطورة والحلم والطبيعة المعاصرة والتراث الشعبي والبدائي كوسائل خلاص للانسان الحديث يتخطى بها اغترابه عن نفسه في معركة الحياة اليومية الحديثة واغترابه عن عالمنا المعقد الحديث . ولكن هذه النظرة يشوبها الكثير من الخطأ فبينما قد يستند التمسك بروح الدين وتقصي وسائطه لاعادة تحقيق مفهوم موحد بين الناس جميعا عن الوجود والحياة والموت على اكبر درجة من التفاؤل . قد تستغل الروح الدينية ايضا مركزة على جانب التحقير من شأن الحياة والانسان او لتجسيد المفارقة بين عالم مضى ساده السلام والطمأنينة ! وبين عالم اليوم الذي يمزقه القلق والرعب ، كذلك فان حضارة الانسان الماضية واساطيره وتراثه الشعبي قد تتعرض للتشويه على ايدي الشعراء الرجعيين ، وقد تستخدم لتأكيد عمق النضال الانساني وعظمته على أيدي الشعراء التقدميين ، والمسألة كلها متوقفة على كيفية الاستفادة من هذه الوسائل التي تحتوي على ينابيع ثرية حقا لا يمكن ان تنكر فائدتها في تدعيم رسائل الفن الحديث من اجل الادراك المتزايد للواقع . لذلك فانه اذا كانت رغبتنا في تحقيق نهضة الفن توجب علينا الاعتراف بهذه الوسائل والحلول الحديثة فانه يجب علينا في الوقت نفسه التنبه الى كيفية استغلال هذه الحلول ، كما تتبلور في اعمال كل شاعر حتى يمكننا رصد اتجاهه الصحيح .

ثانيا : وسائل عرض التجربة الشعرية الحديثة

ان تسليمنا باختلاف الرؤية الحديثة للواقع كما تنعكس في اعمال شعرائنا المعاصرين عنها في اعمال الشعراء السابقين يستلزم منا اعترافا اخر بوسائل شعراء القرن العشرين المستحدثة ، فمن الطبيعي ان الرؤية الجديدة انما تحتوي بمجرد وجودها غالبا على الاشكال الجديدة ، وهذا الموضوع لا يثير كثيرا من المشاكل فيما يتعلق بشعرنا العربي الحديث الذي ما زال في بدايته متفتحا لاستقبال الكثير من المفاهيم والاساليب الشعرية ، وحيث انه في عمره القصير لم يصل بنا بعد الى مستوى تحديد مصطلح شعري متفق عليه بين الشاعر والقارىء والناقد ، ولكن هذا الوضع الذي رفع معظم القيود الشكلية عن الشاعر ويتيح لحريته القدرة على التحقيق بأقصى درجاتها تجاه واقع طال به الظمأ حتى ليتشرب احيانا وبدون وعي منه كل ما يقدم اليه . هذا الوضع يفتح الباب لدخول اشكال جديدة مفرغة من المضمون او تجارب لا تعكس الا الشكل الخارجي للواقع والمأساة او البطولة ، دون الامساك او محاولة الامساك بالجذور المتولد عنها هذا الشيء او ذاك ، لذلك ومع حرصنا على تأكيد حرية الشاعر العربي في ابداع الشكل الملائم لتجربته ، يجب علينا ان ننتبه الى عدم المغالاة في تفسير بعض الاشكال الجديدة ، التي قد لا تعني شيئا اطلاقا ، او قد لا تعني سوى الرغبة في اللعب او التقليد او الابهار المؤقت .

ثالثا : الشاعر العظيم

المخالفة فان الشعر المعادي لا يمكن ان يكون مفيدا في تقدم الحياة ،

هناك من يدعون ان الشعر العظيم لا بد وان يكون تقدميا وبمفهوم ولكن هذه القضية محل نظر ، فنحن قد نتفق على ان قصائد ت.س. اليوت قصائد عظيمة ولكنها في الوقت نفسه قصائد معادية للتقدم ، فهو حين يبكي البراءة المفقودة المرتبطة بعالم اللاهوت مستغلا فترات خاصة من تاريخ المسيحية ، انما يزيف حقائق التاريخ حين يخفي مدى القهر الذي كان يسحق الانسان البسيط في هذه الفترات فيما وراء احلام البراءة المزعومة التي لم تكن عيناه الكليتان بقادرتين على مجرد تخيلها ، ولكن ما يعطي شعر اليوت صفة العظمة انه ايتحدد في صفتين اولاهما تتعلق بقدرته الخارقة على البناء المؤثر وثانيهما تتعلق بحقيقة واقعية هي اصابته في أسر عوامل ادانته للعالم البورجوازي الحديث على نحو جزئي . وعليه فانه يمكننا الاستفادة من اعمال شاعر رجعي عظيم مثل اليوت ولكن بشرط ان نكون متيقظين لما تتضمنه هذه الاعمال من قدرة هائلة على اصطناع حلم خلاص زائف حتى لا ننساق معه في النهاية الى رفض حضارتنا الحديثة رفضا كليا ونقف بذلك في وجه التقدم الانساني .

ولا تقتصر المشاكل والصعوبات التي يتعرض لها التيار الثوري في شعرنا العربي الحديث على ما اسلفنا من مشاكل تعقد الواقع الحديث وتداخل الحلول والميل الى الاسراف في اضفاء مفاهيم متعسفة على النزعات الشكلية المعاصرة او النظرة الاحادية الجانب الى اعمال كبار الشعراء المعاصرين ، وانما هناك تيار قوي في شعرنا العربي يشمل ما يمكن ان نسميه شعراء الرؤية الميتافيزيقية وشعراء الرفض الوجودي وشعراء الفن للفن .

هذا التيار يقف في الجانب المعادي للحضارة والتقدم الانساني وباسم حرية الفن يرفض اصحابه كل انواع الالتزام بكافة مستوياته السياسية والقومية والانسانية العامة والوجودية المتفائلة . ولا بد لنا من مناقشة هذا التيار حتى تتضح ضرورة التيار الثوري المتصارع معه تيار الشعراء الملتزمين كحل وحيد نستطيع من خلاله الوقوف بجانب الانسان المعاصر والتعبير عن مشكلاته الحقيقية والنهوض بوعيه حتى يستطيع الوقوف على مستوى عالمه .

ـ التتمة على الصفحة ١٨٣ ـ

النيـــار الثوري

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٧ ـ

شعراء الرديء الميتافيزيقية :

ها انت ترى الدنيا من قمة وجدك
« لا تبصر الا الانقاض السوداء » ـ صلاح عبد الصبور .
« بيني وبين البـاب
صحـراء من الورق العتيق وخلفها
واد مـن الورق العتيق وخلفها
ممر من الورق العتيق » ـ خليل حاوي
« هل انا وحش الحقيقة في هذه الخرائب حولي ؟ » ادونيس

غالبا ما يخطىء الشعراء الطريق في بحثهم المتعجـل عن اسرار الخلود فيجولون النظر عن تجارب الحياة الى تجارب اخرى من صنع الوهم حتى ليفودهم الظن الى ان المعاني المطلقة انما تعيش بين خرائب الوهم والاطـلال .

انهم لا يريدون الوقوف عند حدود تجارب جزئية محكوم عليهـا منذ البداية بالمحلية ويبحثوه عن الشمول ، ولكنهم يفقدون نقـاط البداية الحقيقية عندما يتخلون عن الواقع ليتخذوا نقاط بداياتهـم من نتائج تجارب أخرى في الفن كتب لها الخلود نظرا لدلالتهـا على مرحلة من مراحل النضال الانساني من اجل مزيد من الفهم كالتجربـة الصوفية ، وهي تجربة ان لم تكرر فافدة الدلالة على واقعنا المعـاصر فانهم لم يفلحوا في كشف طريق يصل بينها وبين الحاضر ، بل انهـم جميعا سواء في ذلك صلاح عبد الصبور او خليل حاوي او ادونيس قد افتعلوا تجربة العذاب الانساني وافتقرت قصائدهم الشـــديدة الذاتية في مظهرها الى العنصر الوحيد الذي يعطي الشعر الذاتي قيمته وهو الصدق ، فصلاح عبد الصبور تكاد تخنق شاعريته كثـرة الادعاءات والعواطف المريضة والسهولة التي تستسلم بها قوى الانسان المتردد صوته في اعماله ، حتى يفسر الاثر التراجيدي المقصود توصله الينـــا .

ان قصائد صلاح عبد الصبور سواء في اناشيد قراره او فـي اغنياته التائهة تخلو تماما من عنصر الصراع وباستثناء قصيـدتي « حكاية قديمة » و « لوركا » فانها تحتشد بصرخات يغلب عليهـا عنصر التدبير لا الانفعال ، اما قصائده تحت عنوان « صحائف مـن مذاكرات مهملة » فليست اكثر من محاولة فاشلة لاضفاء ثوب عصري على أفكار ميتافيزيقية عتيقة ، فهو لا يضيف شيئا ذا قيمه الى الفكـر الانساني عندما يضع تجارب الحكم على الانسان والحياة او عندمـا يرتدي ثياب النبوة في ديوانه قبل الاخير « اقول لكم » ، والـذي يقلل من أهمية تجربة صلاح عبد الصبور منذ قفزته من ميدان الواقعية الى ميدان الميتافيزيقا في ديوانيـه الاخيرين ان تجربته فـي هذين الديوانين تنفصل انفصالا حادا عن الحياة المعـاصرة ، في حين ان الشعراء الميتافيزيقيين الكبار مثل ايزرايادند و ت.س اليوت الـذين تأثر بهم صلاح عبد الصبور وشعراؤنا الميتافيزيقيين الاخرون قـد الشعراء الميتافيزيقيين الكبار مثل ايزرا باوند و ت.س. اليوت الذين الحديثة ، كواجهة تتضمن قدرا من الاقناع لما يخفونه وراءها من احكام مطلقـة غير مقنعـة .

ومع ذلك فنحن لا ننكر ما يتردد ـ وان كان ذلك نادرا ـ في ثنايا قصائد صلاح من لمحات صورية خاطفة بالغة الرهافة والذكاء تذكرنـا ببدايته الواقعية الانسانية التي عقدنا عليها اكبر الامل في شعـر عظيـم .

ولعل صلاح عبد الصبور متواضع في ادعاءاته اذا قارناها بادعاءات ادونيس الذي يصطنع « المزامير » ويتزيا بثوب نصفه لنبي ونصفـه لساحر ، ويرفض الوجود الاجتماعي رفضا كاملا ليصنع من احجـار امس بائد مدينة فاضلة ، ويزعم انه امتزج بالشجر والاحجار والنـار والماء ، انه في الحقيقة لا يجيد الحديث الا عن نفسه بطريقة غامضة احيانا ، ولكن غموضه لا ينشأ من تعقد التجربة وانما ينشأ من النواء المقصد ، وبطريقة وقحة بصراحة احيانا احرى كما يفعل حين يضع مزامير الحكمة في مقدمات قصائده وهي ليست سوى تداع عـاطفي لا يتمتع بشيء من الصلابة ولا يفيد في اجماله عبر الرغبة المجنونة في بعث عالم ميت على حساب الحياة والانسان على ارضنا العربيه ، وليست البشرى الدينية التي أعلنها من قبل ادونيس سوى الاطـار العاطفي الميتافيزيقي لدعوة استعمارية مخربة .

ولكنه بعد ديوانه « كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهـار والليل » الذي حاول فيه أن يرتبط بالافكار التي فرضت سيادتهـا على الارض العربية بطريقته الخاصة ويضفي على تجربته مضمونـا اجتماعيا معاصرا ، يجد من يدافعون عنه باسم التحول ولكنه في الحقيقة لم يفلح في ان يعطي شعره أي قدر من الموضوعية حتى في مناجاتـه لـ « دمشق » حين يضع ذاته في كفة الميزان ويضع الحقيقة التاريخية في كفة أخرى فيختل توازن التجربة بشكل مضحك ولا يستطيـع ان يمسك زمام نفسـه في اطلاق الاحكام على عادته .

يا امـرأة الرفض بلا يقين .
يا امرأة القبـول .
يا امرأة الضوضاء والذهول .

***

وتعشقين الجثث الصفراء والضحايا .
وتأكلين الطين والدموع .
ايتها المتهدمة القاصمة القشور يا دمشق .

***

يا حب ، لا ... عفوك يا دمشق .
لولاك ، لم أهبط الى الاغوار
لم أهـدم الاسوار .

وكان في هبوط الشاعر الى الاغوار وهدم الاسوار ، أيا كانت هذه الاغوار والاسوار ، عزاء عن المأساة كما يتصورها عقل مولع باطلاق الاحكام ، ولكن اذا كان الزيف هو الطابع العام لمعظم اعمال ادونيس الشعرية ، فقد نجت منه قصيدته الكبيرة « تحولات العاشق » التي ينقذها من التردي في هوة المطلق والميتافيزيقا نسيج واقعي حار يتخللها ويعطيها رائحة الصدق وطعمه رغم انها تظل مرهقة نتيجة لمحاولـة الشـاعر المستمرة في ان يضفي من الخارج معاني مطلقة على صميم التجربة ويلصقها بها لصقا .

أما خليل حاوي فقد انفرد بطريق خاص يتسم بالتواضع وبقلة الادعاءات وهو لا يطلق صيحة البشرى الا بعد ان يوهمنا بمروره بتجربة سابقة ، كما في قصيدته الكبيرة « السندباد في رحلته الثامنة » ولكن تجارب خليل حاوي لا تصمد للملاحظة المتفحصة ، ولا بد من هـذه الملاحظة لانه شاعر غنائي عظيم ، يستطيع ان يسرقنا من انفسنا ويبهرنا بصوته الحلو ، ولكن قارىء أشعاره لا بد ان يتساءل في النهايـة عما ترسب في نفسه من التجربة التـي تلقاها ، وحينئذ مـن الممكن ملاحظة ان تجارب خليل حاوي محاولة تأملية بحتة يجثم عليها الصمت وتفتقر الى الفعل وكأن في اعماقه شيئا يمنعه من الاقدام . ولذلـك فاننا نتعجب من اولئك الذين يصفونه كشاعر وجودي وهو يقف فـي طرف الصمت المعادي تماما للوجوديـة .

ان ابحار سندباد خليل حاوي في دنيا ذاته حتى بلوغه كنز المطلق الذي يسميه بالفطرة وبشارته لا تخرج عن كونها مواقف تأملية لا تتميز بأي ابداع فكري ولا تتميز ايضا بأي خيوط تربط بينه وبين واقـع حياتنا وليس في حقيقته سوى صوت رومانسي محمل بحلم ميتافيزيقي.

وفي رأينا ان الشمول في اشعـار هؤلاء الشعراء الميتافيزيقيين وغيرهم لا يتعدى استخدام الالفاظ الدالة على الشمول في تجـارب ذات طابع ذهني مسطحة احادية الجانب في رؤيتها للعالم او التاريخ فاذا تعرضت للواقع فانها تبسطه على حساب تعقد الحقيقة .

اما صوفيتهم فلا تنبع من تجربة معاشه وانما تنبع من طمـوح جشع متنـاقض .

شعراء الرفض الوجودي :

اذا كان الشعراء الميتافيزيقيون قد حاولوا ان يجدوا تفسيرا لمظاهر الحياة الانسانية من خلال ابنيتهم الفنية المقامة على اساس من المطلق او المعجزة أو التجربة الصوفية فان هناك شعراء اخرين انطلقوا في نفس الاتجاه وان كانت بداياتهم مختلفة تماما ـ فقد انطلق هؤلاء الشعراء من فكرة استحالة العثور على تفسير لظواهر الحياة الانسانية المعاصرة ، ولا يمكن لشاعر ينطلق من هذه البداية الا ان يعتمد الشيء الوحيد المؤكد لديه وهو تجربته الذاتية . ولما كان التفسير الخارجي لهذه التجربة غير محل ثقة منه فانه يؤمن بان قدرته تنحصر في مجرد تقديم تجربته الذاتية دون تفسير . ولما كانت هي الشيء الوحيد اليقيني المتبقي لديه فاننا نلاحظ على شعراء هذا الاتجاه ميلا شديدا متزايدا نحو الذاتية والغموض ، الغموض الذي لا يعتبر عنصرا طارئا على التجربة الشعرية من الخارج وانما يظهر احد مكوناتها طبقا للنظرة التي تنفي العقل من الواقع وتهزأ به كعامل قادر على تفسيره .

ومن الطبيعي بالنسبة لشعراء هذا الاتجاه الذين سميناهم بشعراء الرفض الوجودي ان تتعدد مواقفهم تجاه المواقع ، بتعدد العنصر الاساسي الحاسم في تجاربهم الذاتية التي يحتوي كل منها على ضبط عام يتمثل فيه الاحساس السائد لدى الشاعر . وقد يكون هو الاحساس بعبث الحياة ولامعقوليتها أو الاحساس بكارثة عقلية او الاحساس بالجنس كطاقة عمياء تولد الاشكال المشوهة للسلوك الانساني ، أو الاحساس بالغثيان تجاه الاخر ، ولا شك ان تأثر شعراء هذا الاتجاه بالتجربة الاوروبية المعاصرة في الشعر وخاصة الجوانب المتعلقة منها بالاتجاه المسيحي المتشائم والاتجاه العبثي والاتجاه الفريودي والسريالي كان عاملا حاسما في دفعهم الى هذا الاتجاه . خاصة اذا لاحظنا أنهم غالبا ما يتميزون بفقدانهم الاتجاه الاجتماعي وأوضح مثل على ذلك شعراء النثر مثل : توفيق صايغ وجبرا ابراهيم واخرين ما يزالون مترددين بين تجارب الرفض والوجودي وبين الحنين الى تحقيق أرتباط فعال بينهم وبين الواقع مثل كمال عمار .

ولعل المهمة الاساسية للنقد العربي تجاه هذا الاتجاه ليست الاستطراد في مناقشات غير منتجة لمزاعمهم الغريبة المرضية وانما تحديد المكان الذي يوجهون منه مجتمعنا الانساني بمشاكله العديدة.

شعراء الفن للفن :

ولعله من المفيد ايضا ان نشير الى اتجاه شعراء الفن للفن قبل المدخول في التحليلات الاخيرة للشعراء الملتزمين او شعراء التيار الثوري في ادبنا العربي الحديث رغم ان اتجاه الفن للفن الذي يعكس لامبالاة الشعراء بالنسبة للواقع الاجتماعي ، قد اخذ في الذبول نتيجة لفقده انصاره يوما بعد يوم ، بسبب عزلته الاجتماعية وذاتيته المفرطة وضيق افقه ولم يبق من المعبرين عن هذا الاتجاه الذي لا يجرؤ اصحابه على رفض الواقع صراحة ، وانما يرفضون باسم الفن السامي والخالد والتبجيل والرفيع . لم يبق من شعراء هذا الاتجاه الا قلة من التقليديين الذين يستعيرون موضوعاتهم وصور الجمال في اشعارهم وموسيقاهم من قصائد السلف

مثل عزيز اباظة وصالح جودت اللذين لم يطرقا من ابواب الابداع سوى باب التجويد ، فيما ابدعا حسا ولا صورة ولا فكرا ولا رؤية ولا تجربة ، وهناك اخرون تحرروا من الرؤية القديمة مثل محمود حسن اسماعيل او من الرؤية والشكل التقليديين مثل نزار قباني ، ولكنهم ظلوا جميعا معبرين باشعارهم . باستثناء قصائد المناسبات ، عن حلم فني مجرد في الظاهر وعن عزلة انسانه في حقيقة الامر .

وقد يتعرض هؤلاء الشعراء لمشاكل اجتماعية احيانا كما يتعرض نزار قباني مثلا لمشاكل المرأة في علاقتها بالرجل في مجتمعنا العربي مثل قصيدة « حبلى » او كما في قصيدة « رسالة الى سيدة حاقدة » او قصيدة « أوعية الصديد » .

ولكنهم يتوقفون كما يتوقف نزار قباني عند حدود الوصف الخارجي للمشكلة مبددين طاقاتهم في صنع جماليات شكلية دون محاولة الغوص في اعماق التجربة او النفاذ الى سر المأساة فهم يكتفون بمستوى الريبورتاج الصحفي في تناولهم للمشكلة الاجتماعية ولا يحققون في تناولهم لها مستوى الشعر الجديد بهذا الاسم .

الشعراء الملتزمون الواقعيون :

ولدت الحركة الجديدة في شعرنا العربي الحديث في احضان حركات المقاومة ضد الاستعمار الجاثم على الارض العربية . منذ ما يقارب عشرين عاما ، فتركت قضايا تحرر الوطن سياسيا واجتماعيا على شعرنا اثرا لا يخطئه النظر ومع انتصار نداءات التحرر في اجزاء الوطن المختلفة ومنذ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي فتحت الباب لامال جديدة في مستقبل الانسان العربي ، وحتى الان وبعد ان تغيرت الصورة العامة واصبح الشعر الشامل حقيقة تدق الابواب وليس مجرد امل ، وبعد ان اتسعت الصورة ونفذت الى قلب واقعنا تعقدات القرن العشرين وآماله ومخاوفه ، ما يزال شعراؤنا الواقعيون في المقدمة يحملون رسالة الدفاع عن حرية الانسان العربي واحلامه .

صلاح عبد الصبور في « الناس في بلادي » وعبد الرحمن الشرقاوي ومعين بسيسو والفيتوري وجيلي عبد الرحمن ومحيي الدين فارس وتاج السر الحسن وشوقي بغدادي . هؤلاء هم بعض من صنعوا البداية وكان في مقدمتهم عبد الوهاب البياتي ، وكان التزامهم بقضايا الوطن القومية والسياسية الصادر من احساسهم الثوري العميق بالمسؤولية ، وقت ان كان الصراع من اجل نصرة هذه القضايا ـ يعني التشريد أو النفي او هو كان يعني ببساطة ان تتحمل حياتهم عبء مسؤولية الكلمة الشريفة . والحق ان شعرهم لم يخلص في اول الامر من كثير من انفجاجة والدخوات السياسية المباشرة وروح الخطابة والسطحية ، ولكننا لا ننكر ان أشد افكارهم واحاسيسهم عريا وخشونة انما كانت تطرح لاول مرة في تاريخنا في ذلك الوقت ، حاملة بشرى عالم جديد ـ منذ عشرين سنة ـ مما جعل لها قوة تأثير غير عادية منذ البداية ، وكذلك يجب ان نتذكر ان عملية التحرر الحقيقي الدافعة الى خلق الاشكال الجديدة في شعرنا واكسابها النفوذ المعاصر انما ارتبطت بثورية هذا التيار ، واستناده فيما وراءه الى اعظم تقاليدنا الشعرية الموروثة ، ونزوعه الى الامام في الوقت نفسه الى ابعد ما يمكن ان تؤدي اليه الحرية .

وقد اخذت عظمة هذا التيار تتأكد خلال صعوبات الواقع مما دفع بالشعراء الواقعيين الذين صمدوا في وقفتهم بجانب الانسان الى توسيع دائرة الواقعية حتى لنراها شيئا فشيئا تشمل بجانب تجارب الواقع الواضحة تجربة الحلم والواقع الصعب الادراك ، ومستويات الشعور المتباينة تباينا لا نهائيا .

فتعددت الاساليب الواقعية ورأينا شعراءنا هؤلاء يلجأون الى الرمز والتجريد والى الوسائل المتباينة الحديثة مثل تسليط ضوء مفاجيء على الشيء العادي من اجل الكشف عن غوايته ، ورأيناهم يعيدون النظر في تقاليدنا الشعرية الموروثة ، للربط بينها وبين الحاضر ولتأكيد قيمته .

ولا ندعي بعد ذلك انهم قد انتهوا من حل مشاكل الشعر العربي الحديث او من اكتشاف وسائل الصياغة القادرة على النفاذ الى الوجدان الحديث المستهلك من اثر كل ما تلقى به فيه اجهزة الدعاية الحديثة ، السينما والصحافة والراديو والتليفزيون ، وهم كذلك لم ينتهوا الى ايجاد التعبير المنصف بشمول الدلالة على الانسان الحديث .

ولا نظن ان لاي من هذه الصعوبات نهاية ، سواء تعلقت بالموقف الانساني او الادراك او اساليب التعبير ولكن هؤلاء السائرين في أصعب الدروب . الشجعان في مواجهتهم لمتطلبات حاضرهم المعقدة ، الباحثين عن ينابيع الحياة الدائمة في تراثنا الشعبي وفي التراث الانساني وفي تقاليدنا العظيمة وفي حياتنا اليومية ، وفي اغتراب الانسان عن حقيقته وفي اغترابه عن عالم متفوق عليه وفي نضاله من اجل الادراك المتزايد وفي حلمه بحياة افضل ـ هؤلاء الشعراء الذين ابدعوا لنا شعرا عظيما قادرون على حماية مستقبل الشعر .

الانسانيون :

واذا كان الشعراء الواقعيون قد اهتموا بالدرجة الاولى بمشكلة اغتراب الانسان عن العالم الحديث المحيط به فان هناك شعراء اخرين وقفوا ايضا بجانب الانسان وابصروا مستوى اخر لاغترابه الا وهو اغترابه عن ذاته ، فما معنى ذلك ؟..

أجاب على ذلك السؤال شعراؤنا الانسانيون الذين خرجوا من أحضان الطبيعة وما زالت رائحة الارض عالقة بحيانهم وكلمانهم وما زالت اساطير الريف واغانيه تتردد في قصائدهم ، لقد قصرت وسائل المواصلات الجوية المسافة بين القرية والمدن وكان عليهم ان يلتقوا يوما بالانسان هناك . الانسان الذي يستهلك طاقاته النضال اليومي من أجل الخبز والمطالب في الوقت نفسه بالاف الاشياء الصغيرة التافهة والمدفوع به تحت ضغوط التنظيمات الاقتصادية والسياسية باسم الوطن والحرية والعدل وهو لا يكاد يعي من امره شيئا . وكان ما آثار هؤلاء الشعراء ، ليس مجرد الاستغلال السياسي والاقتصادي للانسان وانما توقفه عن الفناء .. وهكذا سعى بدر شاكر السياب الى الكشف عن ينابيع البهجة والحيوية المطمورة داخل الانسان تحت اغلفة الحداثة وشحد طريقه مستخدما الرموز التقليدية التي تحتويها الاساطير والقصص الشعبية ليكشف لنا عن مدى قدرة هذا الانسان على الاحساس المبدع والادراك النبيل ، ومع السياب وبعده دخل شعراء اخرون هذا الميدان ، منهم كامل ايوب الذي استطاع بدأب الفلاح المصري وقدرته على الصبر ان يطوع لغة الشعر ويقربها من لغة الكلام المعاصر حتى لتكاد تحمل كلماته نبض الارض وخضرتها .

لقد أحب هؤلاء الشعراء الانسان ودافعوا عنه ووقفوا بجانبه بطريقتهم الخاصة مؤمنين بانه من الممكن ان يعود الى الفناء وان يمارس ذاته في أروع درجات التحقيق يشهد بذلك تراثه وماضيه ، بل والطبيعة المحيطة به .

ان السياب وكامل ايوب وشعراءنا الانسانيين الواقعيين يدعوننا الى اعادة النظر بداخلنا وحولنا ويعطوننا مثالا رائعا .

الرومانسيون الجدد :

وهؤلاء ايضا شعراء ثوار حقيقيون وان كانت ثوريتهم ذات ملامح خاصة ، وتاريخهم ينطلق من حلم انساني قديم وجد مدافعين اقوياء عنه في جماعة ابولو ومدرسة المهجر ، ولكنهم الان لا يستطيعون ببساطة معايشة هذا الحلم والامل في اعادة الانسجام بين الانسان والطبيعة او رفع راية المحبة دستورا للبشر او الفرار الى عالم اللاهوت خوفا من التلوث بأدران الحياة .

ان الرومانسيين الجدد ينقدون الحلم الرومانسي القديم ويلغون الحياة التي تبخل على الانسان حتى بمجرد الحلم ، وهم يتميزون عن سابقيهم في اشعارهم ، كما تراها في قصائد بلند الحيدري ونازك الملائكة وملك عبد العزيز واحمد حجازي ومحمد ابراهيم ابو سنة على سبيل المثال ، بانهم نموذج بطريقة اكثر فعالية بين الواقع والذات بما يجعل من معطيات الواقع مفسرا لاحزان ذاتية تتكلم بها عادة ، فاذا كانوا كالرومانسيين السابقين في ميلهم الى التعميم والى تحميل العالم ـ بطريقة عشوائية ـ مسؤولية امراضهم واحزانهم وجنوحهم الى الفرار من الواقع كلما اصطدم بهم بدلا من محاولة الكشف عنه وبشكل عام اذا كان تلقيهم للعالم تلقيا عاطفيا محضا مما يملأ قصائدهم بحرارة الانفعال ويجعل للفكر فيها دورا ثانويا الا انهم يمثلون في واقعنا صوتا اصيلا ويجسدون رغبة الانسان في تخطي ذاته وقدره ويعرفون جيدا كيف يلمسون ادق الاحاسيس الانسانية ، وغالبا ما يظهر الواقع الاجتماعي في اعمالهم في خلفية الصورة فيجعلها اكثر اقناعا ، فاذا اضفنا الى ذلك تفوق الروح الغنائية عندهم وارتباطها بتقاليدنا الشعرية الموروثة واهتمامهم الخاص بالجانب الجمالي في قصائدهم فاننا لا نبالغ اذا قلنا بانهم بما قدموه لشعرنا العربي الحديث من اعمال قد قدموا عزاء فرديا للانسان المعاصر هو أحوج ما يكون اليه ليساعده على تحمل عبء الحياة .

أستدراك

واذا كانت التحديدات السابقة ضرورية لتقديم الصورة العامة لشعرنا الحديث فان فائدتها تقف عند هذا الحد العام الذي توخينا فيه التمثيل لا الحصر وهي لا يمكن ان تكون قاطعة ولا يمكن ان تكون نهائية ، والا كانت متعارضة مع طبيعة الظاهرة التي نعالجها مع طبيعة الحياة نفسها التي تقوم على اساس الحركة المستمرة ، وشعراؤنا قادرون على تغيير الخريطة دائما ما داموا كبشر قادرين على تقديم الجديد .

وهناك اتجاهات ثورية لها ظروفها الخاصة لا يمكن معالجتها في سياق الموضوع وانما تتطلب افراد بحث مستقل لها مثل اتجاه الشعر العامي العربي واتجاه شعراء الجزائر ، ونرجو ان نجد من يهتم بتحليلها ومناقشتها من اجل توسيع افق التجربة الشعرية العربية .

القاهرة — شوقي خميس

صدر حديثا :

حتى نقهر الموت

تأليف صلاح عبد الصبور

منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر ص.ب : ١٨١٣ بيروت